عامر كلها ، قبل ان يتحردوا هم الاخرون ، ويفعلوا به ما فعله الشيخ لافي ، بعد ان قلل من هيبته وهيبة الباب العالي بين الناس ٠

ولان حافظ باشا كان ذا حظوة كبيرة لدى الوالي التركي في بيروت ، بل كان شريكه بالاملاك على ذمة الشيخ عبد الحميد الحمد ، فقد ارسل الى السنجقدار في نابلس ، يأمره باسترجاع قطعان حافظ باشا فورا ، وتأديب اهالي البارد ، بان يسوقهم مشيا على الاقدام ، وعقلهم في رقابهم الى قصر حافظ باشا في جنين ، كي يؤدوا له ولاء الطاعة راكعين علنا وامام اهالي القرى كلها ، بعد ان يشهدوا شنق زعيمهم الشيخ لافي الحمد ، في الساحة امام السراي ، بتهمة التمرد على الباب العالي وقطع الطريق على اموال الناس وحلالهم ٠

ولكن الشيخ لافي ما كاد يعرف بتقدم جنود السنجقدار نحو البارد ، حتى ركب فرسه وتمنطق سلاحه ، وفر الى الجبال مع باقي الرجال البالغين ، بعد ان نحر كل ما تبقى من ماعز الباشا في مدخل القرية ٠ فساق الجنود الاتراك كل من صادفوه من شيوخ القرية ونسائها بالسياط الى مقر حافظ باشا في جنين ، بينما بقي قائد الحملة مع سرية كاملة للبحث عنه ومن معه في الجبال ، وجره حيا او ميتا الى المشنقة ، وخاصة بعد ان صحا الناس في الليلة التالية ، على تلك الصاعقة الحارقة ، التي انزلها الله على زيتون حافظ باشا من دون خلق الله ، في كل الجبال وفي جميع القرى مرة واحدة ، حيث ظلت النيران تلتهمه لعدة ايام متتالية ، دون ان يستطيع رجال حافظ باشا انقاذ سوى القليل منه ، بعد ان سخر الاتراك الاهالي في القرى المجاورة لقطع الاشجار امام النيران لحصر الحريق ٠

ويشهد الذين رأوا حافظ باشا تلك الليلة ، حين ايقظه الخدم ليخبروه بما حل بزيتونه ، انه شهق من الغيظ وراح « يلعبط » كالثور المذبوح وهو يشد بكلتا يديه على صدره ، والزبد يرغي على شفتيه ، وهو يكاد يختنق ، ولولا ان لحق الطبيب به على اخر رمق ، لكان لفظ انفاسه وارتاح الناس منه ٠ وسرعان ما شاع بين الناس ، ان الشيخ لافي ورجاله ، هم الذين احرقوا زيتون الباشا انتقاما منه على شنق خاله الشيخ المبروك محمود الحمد امام السراي في جنين ، بعد ان افلت هو من بين يدي الاتراك ولم يستطيعوا القبض عليه ٠ وانه سبب لحافظ باشا جلطة في قلبه ، لا بد وان تقتله قريبا ٠

ولم يكتف الشيخ لافي بذلك ، بل اغار بعد عدة ايام على الجنود الاتراك ، الذين يبحثون عنه في الجبال ، وكاد يبيدهم لولا انهم تراجعوا نحو المرج قبل شروق الشمس ، ثم راح يغير على « احواش » حافظ باشا وغيره من الباشوات والافندية في قرى مرج ابن عامر ، مقسما انه لن يبقى « رأس مطربش تلعب الريح بذيله » ، فذاع صيته بين الناس ، واصبحت جبال البارد قبلة